الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الشاذلي بن جديد - الطارف

كلية الآداب واللغات

قسم: الأدب العربي

مذكرة مكملة لنيل شهادة الماستر في الأدب العربي

تخصص: الأدب الشعبي

بعنوان:

الموروث الثقافي العربي في كتاب رحلات إلى شبه الجزيرة العربية لجون لويس بيركهارت

إعداد الطالبة:

- سامية بعيري

إشراف الأستاذة:

د/مبروكة حولي

لجنة المناقشة:

اسم ولقب الأستاذ	الرتبة	مؤسسة الانتساب	الصفة
آمال بشاينية	أستاذ مساعد أ	جامعة الشاذلي بن جديد- الطارف-	رئيسا
مبروكة حولي	أستاذ محاضر أ	جامعة الشاذلي بن جديد- الطارف-	مشرفا ومقررا
فاروق جقريف	أستاذ محاضر أ	جامعة الشاذلي بن جديد- الطارف-	مناقشا

السنة الجامعية : 2025-2026

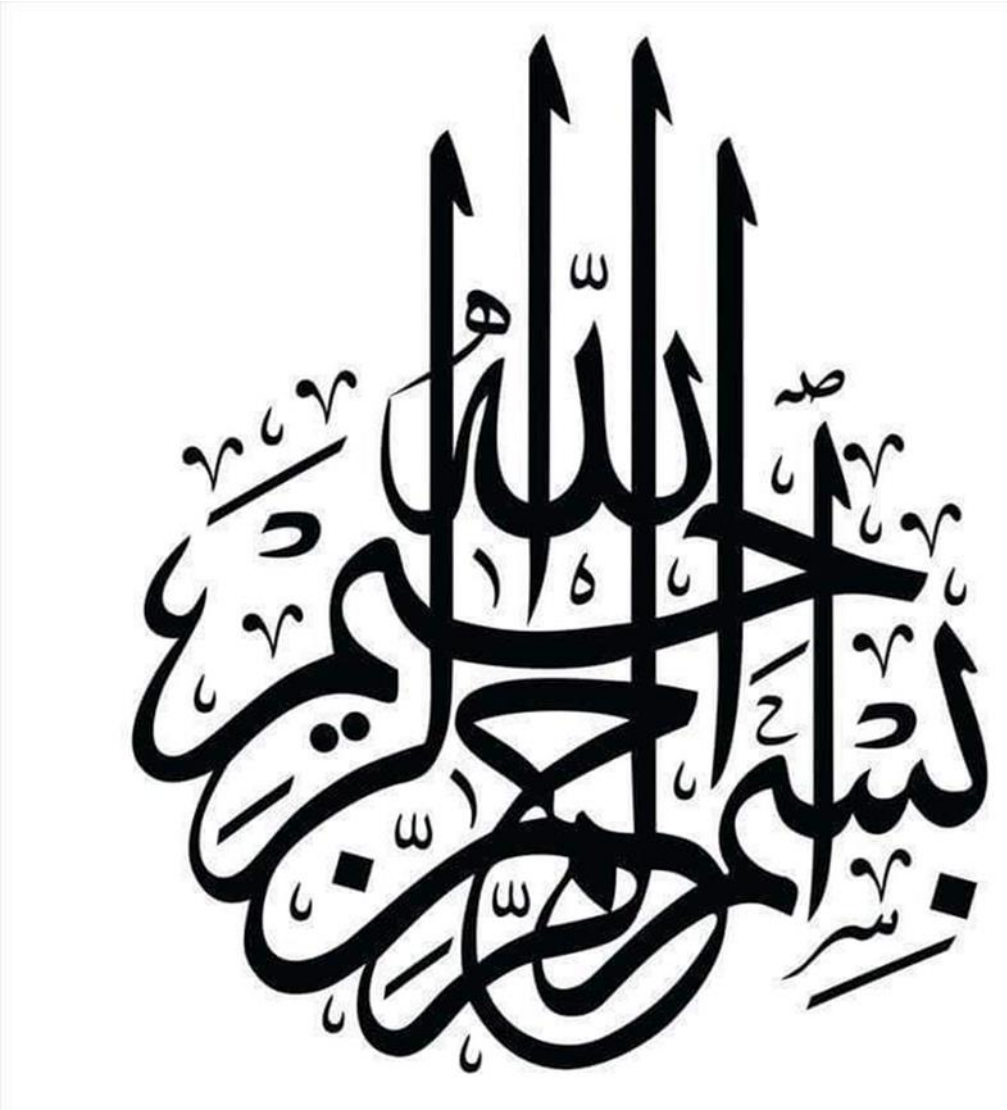
بسم الله الرحمن الرحيم

شكر وعرفان

الحمد لله الذي وفقني لإتمام هذا العمل، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

أتقدم بخالص الشكر والتقدير إلى كل من ساعدني وساندني في إنجاز هذا العمل، سواء من قريب أو بعيد، وأخص بالشكر الأساتذة الكرام الذين قدموا لي التوجيه والنصح طوال فترة الدراسة.

كما أتوجه بعظيم الامتنان إلى عائلتي الكريمة على دعمهم المتواصل وتشجيعهم الدائم، فكانوا السند الحقيقي لي في كل خطوة.

وفي الأخير، أشكر كل من مدّ لي يد العون وساهم بكلمة طيبة أو نصيحة أو تشجيع في إنجاز هذا العمل المتواضع.

الإهداء

أهدي ثمرة جهدي هذا إلى أعز الناس على قلبي، إلى أمي الغالية التي كانت دعواتها سر نجاحي، وإلى أبي العزيز الذي كان سندي ودعمي في كل مراحل حياتي.

وإلى أختي الصغرى العزيزة وصديقاتي " عقيلة رزيق" وبوخاري مفيدة"، الذين كانوا مصدر فرح وتشجيع دائم لي.

كما أهدي هذا العمل إلى كل من ساعدني ووقف بجانبي وساندني من قريب أو بعيد.

إلى كل هؤلاء أهدي هذا العمل بكل حب وامتنان.

سامية بعيري

مقدمة

مقدمة

يعد أدب الرحلات من أهم الروافد المعرفية التي وثقت تفاصيل الحياة الإنسانية، وجسراً حيوياً للتواصل والمثاقفة بين الشعوب، فهو ليس مجرد سرد جغرافي ، بل هو مرآة عاكسة للنسق الثقافي، والاجتماعي، والديني للأمم.

في سياق التفاعل بين الشرق والغرب، برزت كتابات الرحالة الغربيين كنصوص غنية بالرؤى والمشاهدات التي تناولت العالم العربي والإسلامي، غير أن هذه الكتابات تفاوتت في دقتها وموضوعيتها؛ فمنها ما كان مسكوناً بالمركزية الأوروبية، ومنها ما حاول التجرد والغوص في عمق الثقافة المدروسة لفهم آلياتها ومكوناتها من الداخل.

في هذا السياق برز اسم المستشرق والرحالة السويسري "جون لويس بيركهارت "الذي لم يكتفِ بالمراقبة من بعيد، بل انصهر في الثقافة العربية الإسلامية، من خلال كتابه "رحلات إلى شبه الجزيرة ، ليتعمق في تفاصيل الحياة اليومية، والعادات، والتقاليد، والشعائر الدينية، والبنى القبلية والاجتماعية.

وبذلك كان موضوع بحثنا:

الموروث الثقافي العربي في كتاب رحلات إلى شبه الجزيرة العربية لجون لويس بيركهارت.

دفعنا لاختيار هذا الموضوع عدة أسباب أهمها:

- القيمة العلمية لكتاب "رحلات إلى شبه الجزيرة العربية" كمرجع أساسي لا غنى عنه في دراسة تاريخ وثقافة الحجاز.
- شغفنا العميق باستنطاق النصوص التراثية وأدب الرحلات، والرغبة في تتبع المكونات الثقافية الأنثروبولوجية التي تشكل الهوية العربية، وكيفية تفاعل الرؤية الاستشراقية مع هذا الموروث الغني.

بناءً على ما سبق، تتبلور إشكالية البحث في التساؤل الآتي:

ـ كيف تجلى الموروث الثقافي العربي بشقيه المادي واللامادي في كتاب "رحلات إلى شبه الجزيرة العربية" لجون لويس بيركهارت.

ـ ما هي الآليات والمقاربات التي اعتمدها الرحالة في رصد وتوثيق هذا الموروث؟

تتفرع عن هذه الإشكالية مجموعة من التساؤلات الفرعية:

ـ ما هي أبرز تمثيلات الموروث الثقافي المادي (العمران، الأزياء، الأدوات) واللامادي (العادات، التقاليد، المعتقدات، اللغات واللهجات) في نص الرحلة؟

ـ إلى أي مدى استطاع بيركهارت التحرر من النظرة الاستشراقية النمطية، وتقديم قراءة موضوعية للنسق الثقافي العربي؟

ـ كيف ساهم انصهار الرحالة في المجتمع العربي (بشخصية الشيخ إبراهيم) في تعميق رؤيته الأنثروبولوجية للموروث المدروس؟

اقتضى البحث أن تكون الدراسة وصفية تحليلية ، بحيث تمكننا من تتبع واستخراج مظاهر الموروث الثقافي وفهم دلالاته العميقة، وصد رؤية بيركهارت لهذا الموروث.

اعتمدنا في هذا البحث على عدة مراجع أهمها: كتاب الرحالة الأوروبيون وشبه الجزيرة العربية لعوض البادي، وكتاب مكة والمدينة في عيون الرحالة لمحمد أل زلفة وكتاب قراءة في أدب الرحلات الاستشراقية لعبد الرحمان الشيخ .وغيرهم من الكتب التي أثرت جوانب عدة من البحث.

كما اقتضى منا البحث أن نقسمه إلى فصلين تسبقهما مقدمة وتتلوهما خاتمة.

الفصل الأول: تناولنا فيه مفاهيم نظرية عن الثقافة ومكوناتها ولمحة عن كتاب رحلات إلى شبه الجزيرة العربية لجون لويس بيركهارت .

الفصل الثاني: تم الكشف فيه عن الموروث الثقافي المادي واللا مادي في الرحلة.

الخاتمة: تتضمن خلاصة النتائج المتوصل إليها.

وكأي باحث لابد من صعوبات تواجهه في مسيرته البحثية ولعل أهمها ضيق الوقت، وصعوبة الحصول على بعض المراجع.

بفضل الله استطعنا تجاوز هذه الصعوبات وإخراج البحث في هذه الصورة.

في الأخير أتقدم بجزيل الشكروالتقدبر والعرفان للأستاذة المشرفة الدكتورة مبروكة حولي على نصائحها وتوجيهاتها، وكل من قدم لي العون من قريب أو من بعيد.

لئن وفقت فالحمد لله أولا وأخيرا

الفصل الأول:

مدخل مفاهيمي للموروث الثقافي الشعب

1- مفهوم الثقافة:

أ- لغة

تتأصل مادة (ث-ق-ف) في المعاجم اللغوية العربية لتدل على معاني الحذق، وسرعة الفهم، والفطنة، والذكاء، فضلاً عن إدراك الشيء والظفر به، فالشخص "الثَّقِفُ" هو الحاذق الفهيم الذي يمتلك سرعة في استيعاب الأمور، كما تتضمن المادة اللغوية دلالة مادية بحتة تتعلق بتسوية الأشياء وتقويم اعوجاجها، كاستخدام العرب لمصطلح "تثقيف الرماح" للتعبير عن تسويتها وتعديلها لتصبح مستقيمة وصالحة للاستخدام الميداني، وهو المعنى الحسي الذي انسحب مجازاً وتطور ليعبر عن تقويم السلوك الإنساني وتعديل الأخلاق وتهذيب العقل[1].

ب- اصطلاحاً

شهد مفهوم الثقافة تشعبا وتطوراً كبيراً في ميادين العلوم الإنسانية، وتعد صياغة عالم الأنثروبولوجيا البريطاني إدوارد تايلور (Edward Tylor) من أقدم وأشمل التعريفات الكلاسيكية وأكثرها استدعاءً وتأثيراً في الدراسات الأكاديمية، فقد عرّف الثقافة، من منظور كلي، بأنها ذلك الكل المركب والمعقد الذي يشتمل على المعرفة، والمعتقدات، والفن، والأخلاق، والقانون، والعرف، وأي قدرات أو عادات أخرى يكتسبها الإنسان بوصفه عضواً فاعلاً في المجتمع. يبرز هذا التعريف الطابع التراكمي للثقافة وكونها ظاهرة مكتسبة اجتماعياً تنتقل عبر التنشئة لا عبر الوراثة البيولوجية[2]. وعليه فالثقافة من منظور تايلور تشمل كل مايكتسبه الفرد من مجتمعه من عادات وتقاليد ومعارف وفنون.

أما "مالك بن نبي" يرى أن الثقافة ليست مجرد تراكم عشوائي للمعارف، بل هي مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي يتلقاها الفرد منذ ولادته، والتي تمثل المحيط الذي يشكل فيه طباعه وشخصيته، ويعرفها بشكل إجرائي دقيق بأنها التركيب الحيوي المكون من أربعة عناصر: التوجيه الأخلاقي، الذوق الجمالي، التوجيه العملي، والصناعة، جاعلاً منها الركيزة الأساسية والمحرك الأول لأي بناء حضاري أو إقلاع تنموي[3].

---

[1]- محمد بن مكرم بن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت،1994، ط3، ص 30.

[2]- إدوارد تايلور، الثقافة البدائية، دار النهضة العربية، القاهرة،2007، ط1، ص 18.

[3]- مالك بن نبي، شروط النهضة، دار الفكر، دمشق،1986، ط4، ص 115.

وفي حقل علم الاجتماع، يتجه الباحثون إلى التركيز على البعد السلوكي والتفاعلي للثقافة بوصفها محددة لهوية الجماعة، إذ تُعرّف الثقافة وفقاً لهذا المنظور التحليلي بأنها تشكيلة من السلوكيات المتعلمة ونتائج هذا السلوك المعياري، والتي يشترك فيها أفراد مجتمع معين وينقلونها بانتظام عبر الأجيال المتعاقبة، هذا الطرح يجعل من الثقافة بمثابة "الوراثة الاجتماعية" التي تضمن استمرارية الجماعة البشرية وتحافظ على تماسكها العضوي، حيث تتحول الثقافة إلى مرجعية معيارية عليا تحكم تصرفات الأفراد وتوجه تفاعلاتهم اليومية ومؤسساتهم[1].

وتؤكد الدراسات الأكاديمية المعاصرة المتخصصة في تحليل الأنساق الثقافية أن الثقافة تتشكل بوصفها بنية ديناميكية متكاملة، تتفاعل فيها المكونات المادية واللامادية لإنتاج هوية جماعية مميزة، فالثقافة في هذا السياق المعرفي هي الإطار المرجعي الشامل الذي يستبطنه الفرد، والذي يعمل كعدسة يرى من خلالها العالم ويفسر بها الظواهر من حوله، مما يساهم بشكل فعال في تشكيل التمثلات الاجتماعية وتحديد ضوابط الانتماء والاندماج والضبط داخل البناء الاجتماعي العام[2].

ومن جهة أخرى، تشير البحوث الدورية المنشورة في المجلات العلمية المحكمة إلى أن الثقافة لا تمثل كياناً جامداً ومغلقاً على ذاته، بل هي صيرورة مستمرة من التشكيل وإعادة الإنتاج لمعاني الهوية، تتأثر بشكل مباشر بالاحتكاك والتثاقف مع الثقافات الأخرى وبالمتغيرات التاريخية والمادية التي تحيط بالمجتمع، مما يجعلها أداة حيوية ومرنة للتكيف والتطور عبر الحقب الزمنية المتعاقبة[3]. وهذا يعني أن الثقافة ذات طابع حركي تتفاعل مع غيرها من الثقافات فتؤثر وتتأثر.

2- مكونات الثقافة

أ- الثقافة المادية

تشكل الثقافة المادية الجانب الملموس والفيزيائي للنشاط الإنساني، وتتجلى في كل ما تنتجه يد الإنسان وعقله لتلبية حاجاته اليومية والتكيف مع بيئته الجغرافية والمناخية، وفي سياق الموروث الثقافي العربي،

[1]- رالف لينتون، دراسة الإنسان، المكتبة العصرية، بيروت، 1964، ط1، ص 111.

[2]- أحمد سعيد العبيدي، الأنساق الثقافية وتأثيرها على البناء الاجتماعي، أطروحة دكتوراه، جامعة القاهرة، القاهرة،2018، ص 22.

[3]- عبد الله إبراهيم، الهوية والديناميات الثقافية في المجتمعات العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2010، ط1، ص 45.

تتمثل هذه الثقافة في الشواهد المعمارية والإنشائية كالخيام البدوية المنسوجة من وبر الإبل والقصور الطينية والحجرية، بالإضافة إلى الأزياء التقليدية التي تعكس بوضوح أساليب التكيف المناخي والتمايز الاجتماعي والقبلي، كما تشمل أيضاً الأدوات الحرفية، وأسلحة الصيد والقتال، وأدوات الزراعة والرعي، وطرق تحضير الطعام وحفظه، إن هذه العناصر المادية لا تعتبر في حقل الدراسات الأنثروبولوجية مجرد أشياء جامدة أو بقايا أثرية، بل هي نصوص بصرية دلالية تحمل أبعاداً تاريخية وتجسد طبيعة تفاعل الإنسان العربي مع محيطه القاسي، مما يجعلها سجلاً حياً لنمط الحياة وأنظمة الإنتاج والاستهلاك في المجتمعات العربية التقليدية[1].

تتفرع الثقافة المادية في التراث العربي إلى مكونات فرعية ترتبط ارتباطاً وثيقاً بنمط الإنتاج الاقتصادي السائد، حيث نجد أن ابتكار أدوات استخراج المياه وتخزينها، على سبيل المثال، يعكس العبقرية المحلية في استغلال الموارد المتاحة الشحيحة، وتمثل الفنون التطبيقية والزخارف والنقوش المحفورة على الأواني النحاسية والخشبية والمنسوجات جزءاً لا يتجزأ من هذا المكون، إذ تتجاوز وظيفتها النفعية المباشرة لتؤدي وظائف جمالية ورمزية تعبر عن الانتماء والهوية الجماعية، إن القراءة الأكاديمية لهذه المخلفات والتعبيرات المادية توفر للباحثين ولأدباء الرحلات مادة خاماً وأساسية لفهم البنيات التحتية للمجتمعات المدروسة، حيث أن كل أداة صيد أو بناء هندسي يحمل في طياته شفرات ثقافية تفسر طبيعة التقسيم الاجتماعي للعمل والعلاقات الاقتصادية السائدة بين الحاضرة والبادية[2].

ب- الثقافة اللامادية

تمثل الثقافة اللامادية، أو المعنوية، الروح الخفية والعميقة التي تسري في الجسد الاجتماعي، وتتكون من النسق القيمي والمعرفي والاعتقادي الذي يوجه سلوك الأفراد والجماعات ويحدد نظرتهم للوجود، وفي البيئة العربية، يتشكل هذا المكون المركزي من اللغة العربية بتفرعاتها ولهجاتها المتعددة، والشعر الفصيح الذي يُعد "ديوان العرب" لأيامهم وأنسابهم وتاريخهم. وبالإضافة إلى ذلك، يبرز المخزون الشفاهي المتمثل في الأمثال الشعبية، والحكايات الأسطورية، والعادات والتقاليد الصارمة المتعلقة بقوانين الضيافة والكرم والفروسية وإجارة الملهوف، ويمتد هذا الجانب التشريعي ليشمل الأعراف القبلية (القضاء العرفي)

[1]- أبو بكر أحمد باقادر، الأنثروبولوجيا في الوطن العربي، دار النشر للمراكز العلمية، القاهرة،1997، ط1، ص78.

[2]- عبد الله إبراهيم، المكون المادي في التراث العربي، أعمال ملتقى التراث والهوية، منشورات جامعة دمشق، دمشق، 2012، ط1، ص45.

والمعتقدات الدينية والشعبية التي تنظم العلاقات البينية وتضبط تفاعل الفرد مع الغرباء ومع قوى الطبيعة، وتعتبر هذه العناصر المجردة مجتمعة الضامن الأساسي لاستمرارية الهوية وتماسك البناء الاجتماعي وتجنب التفكك أمام التهديدات الخارجية[1].

تتسم الثقافة اللامادية في التراث العربي بكونها ثقافة شفاهية في المقام الأول، تعتمد بشكل جذري على الذاكرة الجماعية القوية وآليات التنشئة الاجتماعية الصارمة لنقلها بسلاسة عبر الأجيال المتعاقبة، هذا الطابع الشفاهي يمنحها مرونة وحيوية فائقتين، مما يجعلها قابلة للتكيف مع المتغيرات التاريخية الطارئة دون أن تفقد نواتها الصلبة وجوهرها الأصيل، إن القيم الأخلاقية الكبرى كالمروءة والنجدة والتكافل الاجتماعي وحفظ الجوار ليست مجرد مفاهيم فلسفية مجردة في السياق العربي، بل هي مؤسسات معنوية ملزمة وموجهة للممارسة اليومية والتفاعلات اليومية، ولعل أدب الرحلات الغربي قد وجد في هذا الزخم الثقافي اللامادي حقلاً شديد الخصوبة للاستكشاف والتحليل، حيث تشكل هذه الأنساق الفكرية والروحية العدسة المنهجية التي يمكن من خلالها تفكيك الذهنية العربية، وفهم محددات شخصيتها الحضارية والتاريخية، وتفسير ردود أفعالها تجاه الآخر[2].

ج- تفاعل وتكامل المكونين المادي واللامادي:

الثقافة المادية واللامادية؛ في حالة تفاعل جدلي وتكامل مستمر، فالأشياء المادية لا تكتسب قيمتها ومعناها إلا من خلال الإطار الروحي والفكري الذي يحيط بها، على سبيل المثال، "دلة القهوة" أو "الخيمة البدوية" هي في ظاهرها مجرد أدوات مادية صماء، ولكنها في المخيال العربي تتحول إلى رموز حية تنبض بقيم غير مادية كالكرم، والضيافة، وتأمين عابر السبيل، وبالمقابل، تجد الثقافة اللامادية (كالمعتقدات والقيم) في الأشكال المادية أوعية لتجسيدها وحفظها من الزوال، كالمساجد والزخارف التي

[1]- علي بن صالح العبيدي، البنية الثقافية في المجتمع البدوي العربي: دراسة أنثروبولوجية، أطروحة دكتوراه، عمادة البحث العلمي بجامعة الملك سعود، الرياض،2015، ص 112.

[2]- عبد المجيد حنون، التراث الثقافي غير المادي في العالم العربي: تحديات الصون والاستدامة، الطبعة الأولى إلكترونياً، البوابة العربية لعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا، شبكة الإنترنت،2020، ص15، الرابط: https://www.arab-soc.org/heritage-intangible-2020) تاريخ الاطلاع: 2026/04/12، 15:30.

تجسد المفاهيم الروحية للإسلام، هذا التداخل يؤكد أن الثقافة هي نسيج كلي متكامل، حيث يُشكل المادي جسداً واللامادي روحاً، ولا ينهض أحدهما بمعزل عن الآخر في تشكيل الهوية الثقافية للمجتمع العربي[1].

3- مفهوم الموروث الثقافي

يتأصل مفهوم الموروث في اللغة العربية من مادة (و ر ث) والتي تحيل إلى انتقال الشيء من قوم إلى قوم، أو ما يخلفه السلف للخلف، ولا يقتصر هذا الانتقال على البعد المادي بل يتجاوزه إلى الأبعاد المعنوية والفكرية، أما اصطلاحاً، فإن الموروث الثقافي يمثل ذلك الرصيد المتراكم من الخبرات، والمعارف، والأنماط السلوكية، والقيم الإنسانية التي أنتجتها الأمة عبر صيرورتها التاريخية، هذا الرصيد لا يعد مجرد تركة جامدة من الماضي، بل هو بنية حية ومستمرة تسهم في تشكيل الوعي الجماعي وصياغة الهوية الثقافية للمجتمع، حيث يتفاعل فيه البعد الزماني (التاريخ) مع البعد المكاني (الجغرافيا) لإنتاج منظومة متكاملة تعكس عبقرية الأمة وقدرتها على التكيف والإبداع. وفي السياق العربي، يكتسب الموروث الثقافي أهمية بالغة لكونه الحاضنة الأساسية للغة العربية والدين الإسلامي والعادات القبلية والحضرية التي شكلت شخصية الفرد العربي وجعلته متميزاً في أنساقه الثقافية والاجتماعية[2].

"إن الموروث الثقافي يتميز بكونه نظاماً رمزياً يمنح المجتمع القدرة على التواصل عبر الزمن؛ فهو ليس مجرد تراكم كمي للمدخرات الثقافية، بل هو عملية انتقاء واعية تقوم بها الأجيال لتثبيت ما يتوافق مع تطلعاتها، ومن هنا، تبرز وظيفة الموروث في تحقيق التماسك الاجتماعي، حيث يعمل كمرجعية قيمية توحد الرؤى الكونية لأفراد الأمة، مما يجعله المحرك الأساسي للفعل الاجتماعي والسياسي في مواجهة التحديات الخارجية"[3].

يتسع مفهوم الموروث الثقافي في الدراسات الأنثروبولوجية والسوسيولوجية ليشمل كل ما هو نتاج للتفاعل البشري مع البيئة المحيطة، محتضناً بذلك الجوانب المادية كالعمران والأدوات، والجوانب اللامادية كالمعتقدات والفنون والآداب، إن هذا المفهوم الشامل يعكس رؤية نسقية تنظر إلى الثقافة باعتبارها كلاً لا

[1]- عيسى الشماس، مدخل إلى علم الاجتماع، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2004، ط1، ص152.

[2]- محمد عابد الجابري، التراث والحداثة: دراسات ومناقشات، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت،1991، ط1، ص 23.

[3]- عبد الغني عماد، سوسيولوجيا الثقافة: المفاهيم والإشكاليات من الحداثة إلى العولمة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت،2004، ط1، ص 78.

يتجزأ، حيث تمثل المعطيات المادية التجسيد الملموس للقيم الروحية والجمالية، ومن هذا المنطلق، يمكن تعريف الموروث الثقافي بأنه الذاكرة الحية للمجتمعات، والآلية التي تضمن انتقال الشفرات الثقافية من جيل إلى جيل، مما يوفر للمجتمع إحساساً بالاستمرارية والانتماء، ويشكل خط الدفاع الأول ضد محاولات الطمس والاستلاب الثقافي في ظل المتغيرات الحضارية المتسارعة، وتتجلى عبقرية الموروث في قدرة 'اللامادي' (كالحكايات والأمثال والمهارات) على منح الروح لـ 'المادي' (كالعمارة والحرف اليدوية)؛ إذ لا يمكن فهم القيمة الجمالية أو الوظيفية لأي أثر مادي دون العودة إلى النسق الفكري والديني الذي أنتجه. هذا التلاحم هو ما يمنح الموروث صفة 'الأصالة'، ويجعله قادراً على الصمود أمام عمليات التنميط الثقافي التي تفرضها الحداثة السائلة"[1]

وعليه فإن دراسة الموروث الثقافي تتجاوز الذات لتصبح موضوعاً للملاحظة من قبل 'الآخر' الغريب. فالرحالة الأجانب، حين دونوا مشاهداتهم، لم يسجلوا وقائع مادية فحسب، بل كانوا يحاولون فك شفرات الموروث اللامادي للمجتمعات المحلية، إن قراءة مدونات هؤلاء الرحالة تسمح لنا باكتشاف الكيفية التي صمد بها الموروث الثقافي كحائط صد أمام 'الرؤية الاستشراقية'، أو كيف تم تشويهه أحياناً نتيجة عدم إدراك الرحالة لعمق الرموز الثقافية المتجذرة في التاريخ والجغرافيا"[2].

ولتوضيح المفهوم اكثر:

4- الموروث الثقافي الشعبي

4-1- ماهية الموروث الثقافي الشعبي ومقوماته:

يُعد الموروث الثقافي الشعبي الركيزة الأساسية التي تستند إليها الأمم في حفظ هويتها وبناء ذاكرتها الجماعية، فهو يتجاوز كونه مجرد بقايا من الماضي ليُشكل نسقاً حياً يتفاعل مع الحاضر، يتضمن هذا الموروث جملة العادات، والتقاليد، والمعتقدات، والفنون القولية والعملية التي تناقلتها الأجيال مشافهةً أو ممارسةً، وفي السياق العربي، يكتسب الموروث الشعبي طابعاً شديد الخصوصية نظراً لارتباطه الوثيق بالبيئة الجغرافية القاسية والتحولات التاريخية العميقة، مما جعل من الحكاية الشعبية، والمثل الدارج،

[1]- محمد الجوهري، الدراسات الأنثروبولوجية للمجتمعات المحلية، دار المريخ، الرياض،2010، ط2، ص 132.

[2]- تركي علي الربيعو، المحاكمات الثقافية: قراءة في الثقافة العربية والأنثروبولوجيا، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء،2000، ط1، ص 45.

والشعر النبطي، أدوات ناجعة ليس فقط للتعبير عن الوجدان الجماعي، بل لمقاومة الاندثار وتوثيق المآثر والبطولات في مواجهة صروف الدهر[1].

تتجلى أهمية هذا الموروث في قدرته على صياغة "عقلية جماعية" توحد أفراد المجتمع وتضبط سلوكياتهم من خلال أعراف وتقاليد غير مكتوبة ولكنها ملزمة أخلاقياً واجتماعياً، فالأدب الشعبي بشتى تفرعاته يمثل مرآة عاكسة للفلسفة المجتمعية، حيث يعالج قضايا الشرف، والكرم، والفروسية، والولاء للقبيلة، وهي قيم شكلت عماد الحياة في المجتمعات العربية القديمة، إن دراسة هذا الموروث لا تقتصر على الجانب الفولكلوري الوصفي، بل تتعداه إلى التحليل الأنثروبولوجي والسوسيولوجي لفهم آليات التكيف التي ابتكرها العقل العربي للتعاطي مع بيئته، وكيف تحولت الممارسات اليومية إلى طقوس رمزية تحمل دلالات ثقافية عميقة[2].

4-2- تجليات الموروث الثقافي في شبه الجزيرة العربية:

في شبه الجزيرة العربية، أفرزت الطبيعة الصحراوية الممتدة موروثاً ثقافياً فريداً تمحور حول ثنائية الحل والترحال، وبناء علاقة عضوية مع عناصر البيئة كالخيمة، والجمل، ونخيل التمر، لقد شكلت مؤسسة القبيلة الحاضنة الأهم لهذا الموروث، حيث تمأسست العادات لتصبح قوانين صارمة تُعرف بـ "السلوم" أو "الأعراف العشائرية"، ومن أبرز تجليات هذا الموروث طقوس الضيافة العربية التي لا تُعد مجرد استجابة لحاجة عابرة، بل هي منظومة قيمية متكاملة تقيس نبل الفرد ومكانته الاجتماعية، كما برزت ثقافة الفروسية والصيد بالصقور كرموز للسيادة والمهارة، وارتبطت هذه الممارسات بشعر حماسي وغزلي يُنشد في مجالس السمر ليحفظ تاريخ الأنساب وأيام العرب[3].

علاوة على ذلك، تزخر شبه الجزيرة العربية بتراث مادي وحرفي يجسد البراعة في تطويع الموارد المحدودة، كصناعة السدو، وصياغة الحلي الفضية، وهندسة البناء الطيني الذي يتلاءم مع المناخ الجاف. ولا يمكن إغفال المعتقدات الشعبية المرتبطة بالطب البديل، والكي، واستخدام الأعشاب

---

[1]- فاروق خورشيد، المأثورات الشعبية، دار الشروق، القاهرة،2002، ط1، ص 45.

[2]- أحمد علي مرسي، الهوية والمأثور الشعبي في العالم العربي، المنظمة الدولية للفن الشعبي، المنامة،2015، ط1، ص 12.

[3]- سعاد بنت عبد الله، العادات والتقاليد في شبه الجزيرة العربية قبل اكتشاف النفط (مذكرة ماستر)، جامعة الملك سعود، الرياض،2018، ط1، ص 77.

الصحراوية، والتي تعكس معرفة تراكمية دقيقة بخصائص النباتات المحلية، وإن هذا الزخم التراثي، بشقيه المادي واللامادي، خضع لعمليات توثيق مكثفة من قبل الرحالة والمستشرقين الذين أدركوا أن فهم التركيبة السياسية والاقتصادية للمنطقة يستوجب بالضرورة تفكيك شفرات موروثها الثقافي والاجتماعي الراسخ[1].

5- لمحة عن الكتاب

5-1- سياق التأليف والرحلة:

يُعد كتاب "رحلات إلى شبه الجزيرة العربية" للمستشرق السويسري يوهان لودفيغ بوركهارت (جون لويس بيركهارت)، والذي عُرف في الشرق باسم "الشيخ إبراهيم بن عبد الله"، واحداً من أهم الوثائق التاريخية والأنثروبولوجية التي كُتبت عن الحجاز في القرن التاسع عشر، جاءت رحلة بيركهارت بتكليف من "الرابطة الإفريقية" البريطانية بهدف استكشاف منابع نهر النيجر، إلا أن إتقانه للغة العربية وتعمقه في الشريعة الإسلامية مكناه من اختراق المجتمعات الإسلامية المغلقة آنذاك، وصل بيركهارت إلى جدة عام 1814م، وتزامنت زيارته مع فترة بالغة الحساسية تمثلت في التواجد العسكري المصري بقيادة محمد علي باشا في الحجاز إبان حروبه ضد الدولة السعودية الأولى، مما أضفى على مذكراته طابعاً سياسياً وعسكرياً إلى جانب قيمتها العلمية[2].

نُشر الكتاب بعد وفاة المؤلف في لندن عام 1829م، برعاية الرابطة الإفريقية، وشكل فور صدوره مرجعاً استثنائياً للمؤسسات الأكاديمية والدوائر السياسية الأوروبية. تنبع الأهمية الاستراتيجية لهذا المُؤلَّف من كون بيركهارت أول باحث أوروبي يقدم وصفاً تفصيلياً دقيقاً من الداخل لمكة المكرمة والمدينة المنورة، متجاوزاً الانطباعات السطحية التي ميزت كتابات بعض الرحالة السابقين، لقد استطاع، بفضل اندماجه التام وادعائه الإسلام، أن يرصد التحولات الديموغرافية والتوترات السياسية في المنطقة بعين المراقب

[1]- محمد سعيد الزهراني، 2012، البناء القبلي والأعراف الاجتماعية في نجد والحجاز (أطروحة دكتوراه)، عمادة البحث العلمي بجامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض، ط1، ص 134.

[2]- جون لويس بيركهارت، رحلات إلى شبه الجزيرة العربية، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط1، 2007، ص 15.

الميداني الخبير، مما جعل نصه يحتفظ براهنيته كشاهد عيان على حقبة مفصلية من تاريخ شبه الجزيرة العربية[1].

5-2-البناء الهيكلي للكتاب:

يتميز البناء الهيكلي للكتاب بمنهجية تعتمد على الملاحظة بالمشاركة، حيث قسم بيركهارت عمله إلى مسارات جغرافية وموضوعات أنثروبولوجية تغطي مدن جدة، والطائف، ومكة، والمدينة المنورة، ركز الكاتب على الطبوغرافيا الحضرية، مقدماً قياسات دقيقة للمسجد الحرام والمسجد النبوي، ووصفاً تفصيلاً لشوارع مكة وأحيائها، وتوزيعها السكاني، وموارد المياه فيها، خاصة بئر زمزم والعين الزبيدية، كما أفرد مساحات واسعة لتحليل البنية الاقتصادية، وطرق التجارة، ونظام القوافل، ومواسم الحج باعتبارها الملتقى الاقتصادي والثقافي الأكبر في العالم الإسلامي، مسجلاً أنواع السلع، والعملات المتداولة، وأساليب البيع والشراء التي كانت سائدة في أسواق الحجاز[2].

إلى جانب الوصف الجغرافي والاقتصادي، انخرط بيركهارت في تحليل سوسيولوجي وثقافي عميق للمجتمع الحجازي والقبائل البدوية المحيطة به، فقد وثق العادات اليومية، وطرق المأكل والملبس، والأمراض المتوطنة، والتباينات اللغوية واللهجية بين سكان المدن والبدو، كما توقف ملياً عند المؤسسات الثقافية، ونظام التعليم في الكتاتيب والحلقات العلمية في الحرمين، وطبيعة العلاقات الاجتماعية التي تحكم الأسر المكية، بما في ذلك طقوس الزواج والوفاة ومكانة المرأة، إن هذا الشمول في الطرح يجعل من كتاب بيركهارت مدونة إثنوغرافية متكاملة لا غنى عنها لأي باحث يسعى لتتبع جذور الموروث الثقافي العربي وتطوراته التاريخية في قلب شبه الجزيرة العربية[3].

---

[1]- عبد الرحمن الشمري، قراءة في رحلات بيركهارت لشبه الجزيرة العربية، منصة التاريخ العربي، الرياض، ط1، ص 1،2021، الرابط https://www.arabhistory.net/burckhardt-travels :، تاريخ الاطلاع: 2026/04/12، الساعة 15:05.

[2]- عبد الله صالح العثيمين، تاريخ المملكة العربية السعودية، مكتبة العبيكان، الرياض،1999، ط10، ص 210.

[3]- فاطمة الزهراء محمود، الاستشراق السويسري وتوثيق التراث الحجازي (أعمال مؤتمر الاستشراق)، مجلس النشر العلمي بجامعة الكويت، الكويت،2019، ط1، ص 58.

5-3- الأبعاد السياسية والقيمة الوثائقية للكتاب

لم يقتصر إسهام بيركهارت في هذا المُؤلَّف على الجوانب الوصفية والإثنوغرافية فحسب، بل امتد ليشكل وثيقة سياسية وعسكرية نادرة ترصد التفاعلات المعقدة في شبه الجزيرة العربية خلال الربع الأول من القرن التاسع عشر، فقد قدم تحليلاً دقيقاً لطبيعة الصراع الدائر بين قوات محمد علي باشا والدولة السعودية الأولى، مستفيداً من تواجده في مسرح الأحداث ولقاءاته المباشرة مع القيادات، بما في ذلك مقابلته الشخصية الشهيرة مع محمد علي باشا في الطائف، كما اتسمت كتاباته بموضوعية لافتة -مقارنة بأقرانه من المستشرقين- في تناوله للحركة الإصلاحية (التي عُرفت بالوهابية)، حيث رصد مبادئها وتأثيراتها العميقة على البنية الاجتماعية والسياسية للقبائل دون تحيز صارخ، مما جعل مذكراته مصدراً أساسياً لفهم الخريطة السياسية وموازين القوى في تلك الحقبة المفصلية [1].

علاوة على ذلك، تبرز القيمة النقدية لكتاب "رحلات إلى شبه الجزيرة العربية" في كونه نموذجاً متقدماً للكتابة الاستشراقية الميدانية التي تتجاوز "المركزية الأوروبية" المتعالية لتتبنى نهجاً أقرب إلى النسبية الثقافية، فرغم خلفيته الغربية والارتباطات الاستخباراتية أو الاستكشافية لرحلته، استطاع بيركهارت أن يقدم صورة إنسانية وحية للمجتمعات الحجازية، متجاوزاً القوالب النمطية العجائبية التي سادت أدبيات الرحالة الغربيين، إن هذا التوازن الاستثنائي بين الرصد العلمي المحايد والاندماج الواقعي في نسيج المجتمع المعني، هو ما يمنح الكتاب حصانته ضد التقادم، ويجعله مرجعية كلاسيكية لا تنضب لإثراء الدراسات التاريخية، والأنثروبولوجية، والسياسية المعاصرة المعنية بالجزيرة العربية [2].

5-4-رصد الشعائر الدينية وتوثيق الحياة الفكرية واللغوية

تتجلى عبقرية بيركهارت الميدانية في قدرته الاستثنائية على التماهي مع المناخ الروحي والديني في الحجاز، حيث يُعد كتابه من أوائل المصادر الغربية التي قدمت توصيفاً تفصيلياً وحياً لشعائر الحج ومناسكه من منظور "الداخل"، فقد سجل بدقة متناهية حركة الحجاج، ووقفة عرفات، ومسارات التروية والتشريق، واصفاً التنوع الإثني والثقافي الهائل لجموع الحجيج القادمين من شتى بقاع العالم الإسلامي، لم يكن هذا الوصف مجرد سرد لسياحيات دينية، بل كان تحليلاً سوسيولوجياً لتأثير فريضة الحج في صياغة

[1]- محمد آل زلفة، الرحالة الأوروبيون وشبه الجزيرة العربية، دار طويق للنشر والتوزيع، الرياض،1996، ط1، ص 85.

[2]- يحيى محمود بن جنيد، المستشرقون والتراث العربي، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض،1993، ط2، ص 112.

هوية إسلامية عابرة للقوميات، وكيفية تذويبها للفوارق الطبقية والعرقية داخل المشاعر المقدسة، وهو ما وفر للدوائر الأكاديمية فهماً أعمق للمحرك الروحي الذي يربط أطراف العالم الإسلامي بمركزه في مكة المكرمة [1].

على الصعيد اللغوي والفكري، لم يكتفِ المؤلف بالرصد الظاهري للمجتمع، بل تعمق في دراسة البيئة الفكرية وتوثيق التراث الشفهي، فقد أبدى اهتماماً بالغاً برصد التباينات اللهجية بين القبائل البدوية وسكان الحواضر، وجمع ثروة من الأمثال الشعبية والمفردات المحلية التي تعكس المخيال الشعبي وثقافة الحياة اليومية في الحجاز، كما سلط الضوء على الحركة العلمية في أروقة الحرمين الشريفين، واصفاً حلقات الدرس، ونوعية المخطوطات والكتب المتداولة، وطبيعة النقاشات الفقهية والعقدية بين العلماء، هذا التوثيق اللغوي والفكري المباشر منح الكتاب بُعداً فقهياً وأدبياً جعل منه خزانة معرفية تحفظ جزءاً هاماً من التاريخ الثقافي والاجتماعي لشبه الجزيرة العربية قبل دخولها في أطوار التحديث المعاصر [2].

5-5- التوثيق العمراني والمساهمة في الأنثروبولوجيا الطبية

يكتسب كتاب بيركهارت أهمية مضافة من خلال عنايته الفائقة بـ **التوثيق المعماري والعمراني** لمدن الحجاز، وهو ما تفرد به بشكل منهجي عن سابقيه، فقد قدم تخطيطاً طبوغرافياً وهندسياً شبه متكامل لشوارع مكة المكرمة والمدينة المنورة وأحيائها السكنية، واصفاً طراز بناء المنازل، والمواد المستخدمة في تشييدها، وشكل النوافذ (الرواشين الخشبية)، وصولاً إلى ترتيب الغرف الداخلية ووظائفها الاجتماعية، ولم يغفل عن ربط هذا التمدن بالظروف البيئية والصحية، فأسس لما يمكن تسميته بـ "الأنثروبولوجيا الطبية الميدانية"، حيث سجل بدقة أنواع الأمراض والأوبئة المتوطنة أو الوافدة التي كانت تضرب المنطقة (كالحميات والأمراض المعوية)، وأساليب التداوي الشعبي وممارسات الطب المحلي، وتأثير المناخ القاسي على البنية الجسدية للسكان، مما وفر قاعدة بيانات ديموغرافية ووصفية نادرة عن التاريخ الصحي والعمراني للحجاز [3].

---

[1]- أحمد إيبش، مكة المكرمة والمدينة المنورة في كتابات الرحالة الغربيين، هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، أبوظبي،2006، ط1، ص 145.

[2]- عوض البادي، الرحالة الأوربيون في الجزيرة العربية: دراسة تاريخية تحليلية، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض،2005، ط1، ص 192.

[3]- محمد عبد الله آل زلفة، مكة والمدينة في عيون الرحالة، دارة الملك عبد العزيز، الرياض،2008، ط2، ص 95.

5-6-الأثر الممتد للكتاب في المدونة التاريخية والاستشراقية

على صعيد **الأثر والتلقي**، شكلت مدونة بيركهارت حجر الزاوية الذي استندت عليه الأجيال اللاحقة من المستشرقين والرحالة الغربيين الذين زاروا الحجاز في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، مثل ريتشارد بيرتون وكريستيان سنوك هورخرونيه، فقد اتخذوا من نصه "المرجعية القياسية" التي يُقاس عليها أي تغيير ديموغرافي أو عمراني أو سياسي طرأ على المنطقة لاحقاً، والأهم من ذلك، أن المؤرخين العرب المعاصرين والباحثين في تاريخ الجزيرة العربية يعتمدون اليوم على مذكراته كـ **وثيقة تاريخية أساسية وموثوقة** لسد الفجوات في المدونة التاريخية المحلية خلال فترة التواجد العثماني والمصري والدولة السعودية الأولى، إن دقة منهجه وأمانته في النقل -رغم الغطاء الاستخباراتي لرحلته- جعلت من "رحلات إلى شبه الجزيرة العربية" معياراً ذهبياً في أدب الرحلات الاستشراقي، ومصدراً حياً يتجاوز الانحيازات الأيديولوجية ليوثق نبض الحياة اليومية والمؤسساتية في قلب العالم الإسلامي [1].

نخلص من خلال الطرح النظري في هذا الفصل إلى أن الثقافة ليست مجرد تراكم عشوائي للعادات والتقاليد، بل هي نسق حيوي متكامل يجمع بين العناصر المادية الملموسة والقيم اللامادية المجردة، وقد تبين لنا أن الموروث الثقافي يمثل الذاكرة الحية للأمم والدرع الحصين الذي يحمي هويتها من الاندثار في ظل التحولات التاريخية والاجتماعية، كما اتضح أن الموروث الشعبي في شبه الجزيرة العربية يتسم بخصوصية فريدة فرضتها قسوة البيئة الصحراوية ونظام الحياة القبلية، مما جعل من كل أداة مادية أو ممارسة شفهية رمزا يحمل دلالات عميقة، إن هذا الفهم المعمق لطبيعة الأنساق الثقافية ومكوناتها يوفر لنا الأرضية المنهجية والأنثروبولوجية الصلبة التي سنستند إليها في الفصل القادم، وذلك لتحليل الكيفية التي قارب بها الرحالة جون لويس بيركهارت هذا الموروث الغني واستطاع توثيقه في مذكراته.

---

[1]- حصة بنت جمعان الزهراني، الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الحجاز من خلال كتابات الرحالة، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض،2012، ط1، ص 134.

الفصل الثاني:

تجلِّيات الموروث الثقافي

في كتاب «رحلات إلى شبه الجزيرة العربية»

لجون لويس بيركهارت

تمهيد

عدّ كتاب الرحّالة السويسري جون لويس بيركهارت (1784–1817) «رحلات إلى شبه الجزيرة العربية» من أهمّ الكتب التي رصدت الحياة الاجتماعية والثقافية في الحجاز في مطلع القرن التاسع عشر؛ إذ تمكّن بيركهارت بفضل إتقانه العربية وتقمّصه شخصية الحاج المسلم باسم «إبراهيم بن عبد الله» أن يعيش بين الناس في عام 1814م ويرصد عاداتهم وأطعمتهم وملابسهم ومساكنهم وطقوسهم رصداً دقيقاً من الداخل، لا من خارج الأسوار كما فعل غيره من الرحّالة الغربيين قبله الذين اضطُرُّوا إلى الاكتفاء بأقوال المرتدّين والمخبرين.

وتتوزّع تجلّيات الموروث الثقافي في الكتاب على شِقّين: شِقٍّ «مادّي» يتعلّق بكلّ ما يُحَسّ ويُلمَس من لباس وطعام وعمارة وأوانٍ وأدوية، وشِقٍّ «لامادّي» يتعلّق بالعادات والتقاليد والمعتقدات وأشكال الترفيه والذاكرة الشعبية، وسنُقدّم في هذا الفصل استعراضاً مفصَّلاً لكلّ عنصر، مع استخراج الشواهد الحرفية من الكتاب، وتعليق نقدي خاصّ، وتوثيق مكان كلّ شاهد بصفحته.

ولا بُدّ من الإشارة، منهجياً، إلى أنّ الأرقام المُثبَتة في هذا الفصل تُحيل إلى الترقيم المطبوع في الطبعة العربية، وقد حافظنا على ألفاظ الرحّالة كما وردت، مع تصحيح بعض الأخطاء الإملائية اليسيرة الناتجة عن جودة الطباعة.

أولاً: الموروث الثقافي المادّي

يقوم الموروث المادّي على الأشياء الملموسة التي تُجسّد ثقافة المجتمع في تجلّياتها العينية، وقد رصد بيركهارت من ذلك جوانب عديدة في الحجاز، أبرزها: اللباس، والطعام والشراب، والعمران والمسكن، والتداوي بالأعشاب، والأواني والأدوات، وفيما يلي تفصيل ذلك.

1. اللباس

أ- لباس الإحرام: يصف بيركهارت متاجر الثياب في جدة وما يُباع فيها لقضاء شعيرة الحج، فيذكر أنها تُقصد بشكل خاص خلال موسم الحج لشراء:

« «الحرام» أو «الإحرام» وهو العباءة أو الغطاء الذي يؤدّى به الحج، وهو عبارة عن قطعتي قماش قطني أو كتّاني هندي ناعم وطويل »

ب- العباءات البدوية وصناعتها المنزلية: يلاحظ بيركهارت أنّ نساء البدو يصنعن عباءاتهنّ بأنفسهنّ بدلاً من شرائها:

« إذ إنه معروف عن زوجات البدو الآخرين أنهنّ يَصْنَعْنَ عباءاتهنّ الخاصة بأنفسهنّ[1] ».

ج- القمصان المخططة الزرقاء: يذكر أنّ القماش المستورد من مصر يُستعمل لصناعة:

« القمصان المخططة المصبوغة باللون الأزرق والتي يرتديها الفلاحون والخُدُمان باللونين الأحمر والأصفر، ويستعملها التجار الأوفرون غنىً والسيدات كلهنّ ».

[1]- جون لويس بيركهارت، تجلّيات الموروث الثقافي في كتاب «رحلات إلى شبه الجزيرة العربية»، ترجمة: هتاف عبد الله — مؤسسة الانتشار العربي، بيروت 2005، ص 40، 41.

د- ملابس الطبقة العليا: يصف ما يرتديه الأثرياء والتجار من ملابس فاخرة مستوردة، فيذكر القبعات الحُمر والأثواب الجوخية الصوفية وشالات الكشمير من الدرجة الثانية وشالات الموصلين.

هـ- زيّ غير المسلمين في زمن الأشراف: يشير إلى ما كان يُفرض عليهم من ملابس مميِّزة:

« وفي زمن الأشراف كانوا يتعرّضون أكثر للمضايقات والتحرّش ويُكرَهون على ارتداء ثوب خاص ويُمنعون من الاقتراب من بوابة مكة[1] » .

يكشف وصف بيركهارت أنّ لباس أهل الحجاز كان طبقياً بامتياز؛ فالتجار الأغنياء يرتدون الأثواب الجوخية والقبعات الحمر والشالات الكشميرية المستوردة، وهو ما يعكس التأثير العثماني والهندي القوي على الذوق المحلي، في حين كان الفلاحون والعمّال يرتدون القمصان القطنية الزرقاء البسيطة، أمّا البدو فيستقلّون نسبياً عن السوق إذ تنسج نساؤهم العباءات بأيديهنّ، وهذه إشارة لافتة إلى اقتصاد منزلي بدوي ذاتي الاكتفاء يقابل اقتصاد المدينة الاستهلاكي.

ولعلّ أهمّ ما يستوقف القارئ هو تأكيد بيركهارت أنّ الإحرام لباس موحَّد بسيط (قطعتا قماش قطني)، ممّا يعكس وظيفة اللباس الدينية في إذابة الفوارق الطبقية أثناء الشعيرة، كما يظهر أنّ اللباس كان يُستعمل أداةً للوصم الاجتماعي والديني، إذ فُرض على غير المسلمين زيٌّ مميِّز في زمن الأشراف، وهو ما يكشف عن البُعد السياسي والرمزي للملبس في تلك الحقبة.

تمثل الأزياء في الفضاء الحجازي كما رصدها بيركهارت، شبكة معقدة من الدلالات الرمزية التي تكشف عن موقع الفرد في الهرم الاجتماعي وانتمائه العرقي، ومدى تفاعله مع الأسواق العالمية ولم تكن مكة وجدة مجرد ومدنتين محليتين، بل كانتابؤرتين لإستقبال المنسوجات من مختلف العالم القديم ، مما خلق ثقافة ملبسية هجينة ومتعددة الطبقات وهذا ما دل عليه في قوله:

[1]- جون لويس بيركهارت، مرجع سابق، ص23، 41.

وهناك ستة متاجر كبيرة للسلع والأقمشة الهندية التي تُباع بالقطعة ويباع فيها الجوخ الفرنسي وشالات الكشمير إلخ..[1].

كما يصور لنا من خلال كلامه عن الزي كذلك أنه على الرغم من كَوْن سكان مكة عبارة عن شعب مختلط إلا أنهم يرتدون الزي نفسه ولهم العادات نفسها كذلك بالرغم أنهم في أصل مختلف فهم يبدون أقل تمسكاً بزيهم الوطني وعاداتهم في هذه المدينة المقدسة[2].

كما يصف زي الطبقات الثرية في الشتاء بقوله: هو عبارة عن ثوب Benish أو عبارة جوخ فوقية وجبة أو عباءة تحتية من القماش نفسه، كما يُلبس الزي نفسه في أنحاء تركيا كلها، فضلاً عن عباءة حريرية مزخرفة متشددة ووشاح من الكشمير الرقيق وعمامة من الموسلين الأبيض وخفان أصفران، يشكلان تتمة للثوب، ويرتدون بدلاً منه في فصل الصيف زيّاً مؤلفاً من قماش حريري بالغ الرقة من صناعة هند وتوجد في (مكتر خانه).

– أما الطبقات العليا مقاماً ومنزلة والتي تقلد الزي التركي وموضته، فتعتمر قلنسوة حمراء مغربية تحت العمامة، تلك التي تعتمرها الطبقات الأخرى من الكتان المطرز بالحرير وهي من صنع نساء مكة وهي هدية شائعة من امرأة إلى حبيبها، وتطرز في أعلاها أحياناً آيات من القرآن بأحرف كبيرة.

العباءات التي يرتديها الأنيقون من الطبقة الوسطى هي عامة من الموسلين الهندي الأبيض وتكون دون أي تبطين وتدعى "بدن" وتختلف عن "الأنترى" المشرقي الشائع كونها قصيرة جداً ودون أكمام وبالطبع أكثر برودة وفوق "البدن" تلبس جبة من القماش الرقيق أو القماش الحريري الهندي التي يرميها الرجل فوق

[1]– بيركهارت ، رحلات في في منطقة الحجاز العربية ، مرجع سابق، ص 40.

[2]– المصدر نفسه، ص153.

كتفه في موسم الحر الشديد، فتكون حينها العباءة أو القميص التحتية غطاءه الوحيد وتكون القمصان من الحرير الهندي أو الكتان المصري أو الأنشوي وتكون بالجودة التي يستطيع تحمل كلفتها الشاري [1].

لا ترتدي الطبقات الدنيا عادة، على الأقل في فصل الصيف، إلا قميصاً، وعوضاً عن السروال، قطعة من التنكين الأصفر الهندي (قماش قطني متين) أو الكتان المصري المخطط حول الخاصرة، ويرتدون فوق تلك في فصل الشتاء "بردًا" من الخام الهندي المخطط لكن من غير حزام لشدّها حول الجسم.

وتنتعل الطبقات الدنيا والوسطى الصنادل بدل الأحذية في عادة تناسب تماماً هذا الجو الحار، إذ إنها تساهم في برودة القدمين، وتأتي أفضل الصنادل من اليمن حيث تبدو أنواع الصناعة الجلدية كلها في ازدهار.

– يعتمد العديد من الناس في فصل الصيف، والهنود البسطاء كلهم القلنسوة فقط دون العمامة، إن العمامة المعتادة هي من القماش القطني، أو الكتّاني الهندي، أو من الموسلين، التي تلفها كل طبقة حول الرأس في شكل معين من الثنيات، وأولئك الذين يصفون أنفسهم علماء أو فقهاء يتركون طرفها ليتدلى في خط ضيق إلى وسط ظهرهم، ويحافظ المكيون على نظافة ثوبهم أكثر من أي شعب شرقي عرفته يوماً، فبما أن الموسلين الأبيض أو الكتان الأبيض يشكل الجزء الأساسي في لباسهم، فهو يتطلب غسيلاً متكرراً، وهذا ما يتم بانتظام بحيث إن الطبقات الأشد فقراً تسعى إلى تبديل ثوبها مرة في الأسبوع على الأقل أيضاً.

أما لدى الطبقات العليا والوسطى، فإن التبديل يتم طبعاً بشكل متكرر أكثر، كما يرتدي الثري ثوباً مختلفاً كل يوم وليس غريباً أن يمتلك العديد ثلاثين أو أربعين ثوباً [1].

[1]– المصدر نفسه، ص 155.

إن أهل الحجاز يبتهجون بأثوابهم أكثر بكثير من المسلمين الشماليين، وينفق دخل الطبقات الدنيا في الأغلب في الثياب، وعندما يعود مكي من متجره إلى المنزل، أو بعد نزهة قصيرة في المدينة، يخلع ثيابه فوراً ويعلقها على حبل مربوط عبر غرفة الجلوس وينزع عمامته ويُبدل قميصه ثم يجلس على سجادته وعلى رأسه قلنسوة خفيفة، وفي هذا الثوب المنزلي يستقبلون الزوار.

يظهر المكيون خلال أيام الأعياد الدينية ولعهم بالثياب بدرجة أكبر بكثير، من الأكثر ثراءً إلى الأكثر فقراً وعوزا، على كل شخص أن يكون حينها مرتدياً ثوباً جديداً، وإذا ما كان عاجزاً عن الشراء فإنه يقوم باستئجار واحد من التجار ليومين أو ثلاثة أيام[2].

كما يرتدي الأولاد بالطريقة المثقفة نفسها، وبعد العيد توضع الألبسة الفخمة جانباً ويعود كل واحد إلى حالته المألوفة في اللبس.

أما بالنسبة للنساء في مكة وجدة فقد ذكر بيركهارت أن النساء ترتدي عباءات من الحرير الهندي وبنطالاً فضفاضاً أزرق مخطط يصل إلى الكعبين وقد طرّز في الأسفل بخيط فضي، ويرتدين فوقه العباءة الواسعة وتدعى الحبرة وهي من القماش الحريري الأسود المستخدم في مصر وسوريا، أو ملاءة من الحرير المخطط بالأزرق والأبيض من صناعة هندية[3].

ويعجبن وجوههن ببراقع بيضاء اللون أو زرقاء فاتحة ويعتمرن على الرأس المغطى بالملاءة قلنسوة مثل الرجال لُفّ حولها قطعة من الموسلين الملون في عدة ثنيات، ويقال أن غطاء الرأس أقل زخرفة بالعملة الذهبية واللآلئ والحلي من الذي تعتمره السيدات في مصر وسوريا، إلا أنه على الأقل قد لُفّ حوله خط

[1]– بيركهارت، مرجع نفسه، ص 155.

[2]– بيركهارت، ملاحظات حول سكان مكة وجدة، رحلات إلى شبه الجزيرة العربية، مرجع سابق، ص 156.

[3]– بيركهارت، نفسه المرجع، ص 156.

من الشكبوين (عملة) ويلبس العديد منهن العقود الذهبية والأساور والخلاخل الفضية، وترتدي النساء الأقل ثراءً القميص المصري الأزرق وبنطالاً وفضفاضاً كذلك الذي سبق ذكره وأساور من القرنيات أو الزجاج أو الكهرمان[1].

أما بالنسبة للأطفال فقد ذكر بأن أطفال مكة ليسوا مدللين من أهلهم كما هو الحال في بلاد أخرى من الشرق، فما أن يتمكنوا من السير على أقدامهم بحرية، حتى يسمح لهم باللعب في الشارع أمام المنزل وهم يرتدون ثياباً رقيقة جداً أو وهم بالأحرى نصف عراة .

وبما أن جون لويس بيركهارت في زيارته إلى شبه الجزيرة العربية قد رصد رأي سكان مكة وجدة فقد ذُكر كذلك من خلال هذه الرحلة لباس الإحرام الذي يرتبط بشعيرة الحج والعمرة حيث يقول: " ويتألف الإحرام من قطعتين قماش كتّاني أو صوفي أو قطني، تلف الأولى حول الخاصرة وترمى الثانية على العنق والكتفين لكي يترك جزء من الذراع الأيمن مكشوفاً[2].

2- الأكل والطعام

أ- الزبدة، المادة الأساسية في المطبخ: يؤكّد بيركهارت أنّ الزبدة تشكّل عماد الطبخ الحجازي وعادة يومية لدى جميع الطبقات:

« وتشكّل الزبدة المادة الأساسية في المطبخ العربي وهي دهنية أكثر حتى من الزبدة الإيطالية... وإنها لعادة شائعة بين الطبقات كلها بأن يشربوا كل صباح فنجاناً مليئاً بالزبدة المذوّبة أو السمن، وتُشرب بعدها القهوة، إذ يعتبرونها منشّطاً قوياً ».

ب- العصيدة والعسل، فطور الطبقات الدنيا:

[1]- بيركهارت، رحلات إلى شبه الجزيرة العربية وجوارها، مرجع سابق، ص 157.

[2]- المصدر السابق ، ص 77.

« ويسود بين الطبقات الدنيا فطورٌ مؤلَّف من مزيج من السمن والعسل المسكوب فوق كسرات الخبز الساخن الخارج لتوّه من الفرن، والعرب المولعون بالعصيدة لا يأكلونها أبداً دون العسل ».

ج- التمر، سيّد طعامهم: يربط بيركهارت تفضيل التمر بالسنّة النبوية، ويصف صناعة عجينته:

« ومن كل ما يأكله ويستهلكه العرب، يُعتبر التمر الأكثر تفضيلاً، كما أن لهم عادات وتقاليد عديدة من نبيّهم يُظهر فيها تفوّق التمر على أنواع الطعام الأخرى كلها... وفي نهاية شهر حزيران، تأتي الفاكهة الجديدة وتُدعى «رطب» وتدوم لشهرين، يتم بعدها بيع عجينة التمر وتُدعى «عجوة» لما تبقّى من السنة[1] ».

د- المُجدَّرة (الأرز بالعدس)، طبق الطبقة الوسطى:

« ويشكّل مزيج من الأرز والعدس، بكميات متساوية، تُسكب فوقه الزبدة، طبقاً محبباً عند الطبقة الوسطى، بل هو عادة طبقهم الوحيد عند العشاء، وقد اكتشفتُ أن البدو، في أنحاء الحجاز كلها، لا يحملون عند سفرهم مؤناً أخرى غير الأرز والعدس والزبدة والتمر »

ويُعلّق المترجم في الحاشية أنّ هذا الطبق يُعرف في سوريا باسم «المُجدَّرة» لأنّ حبوب العدس في الأرز تشبه وجه شخص مصاب بمرض الجدري[2].

هـ- الكباب واللحم المُجفَّف (البسطرمة)، أطعمة تركية الأصل:

« وهناك متجران للكباب حيث يُباع اللحم المشوي، ويدير هذه المتاجر الأتراك، إذ إن الكباب ليس طبقاً عربياً » .

[1]- جون لويس بيركهارت، مرجع سابق، ص 33-35.

[2]- جون لويس بيركهارت، مرجع سابق، ص38.

ويصف اللحم المُجفَّف بأنه لحم البقر المُمَلَّح والمدخَّن المعروف باسم «بسطرمة» الذي يتلذّذ به المسافرون .

و- الفول المُدمَّس، فطور مصري الأصل:

« إن الفول المغلي يُدعى «مُدَمَّس» وهو يشكّل طبقاً محبوباً عند الشعب المصري وقد أخذه العرب منهم » .

ز- الحلويات الشامية والهندية: يلاحظ بيركهارت ولع أهل الحجاز بالحلويات أكثر من سائر الشرقيين، ويذكر البقلاوة والكنافة والغريبة التي يصنعها الهنود ببراعة[1].

ح- الخضار النيئة: يذكر أنّ الفجل والكُرّاث هما الخضراوان الوحيدتان اللتان تُستعملان يومياً ويأكلهما عامة الناس نيئتين مع الخبز، ويضيف أنّ البصل والثوم والكرّاث هي الخضراوات الوحيدة التي يحبّها العرب[2].

يقدّم لنا بيركهارت خريطة غذائية متكاملة لأهل الحجاز تكشف ثلاث حقائق مهمة:

أولاً، التراتبية الطبقية في الطعام واضحة جداً: الطبقات الدنيا تأكل العصيدة بالعسل والفول المُدمَّس والخبز بالخضار النيئة، بينما الطبقة الوسطى تأكل المُجدَّرة، والطبقة العليا تستهلك اللحم والحلويات.

ثانياً، التداخل الثقافي: المطبخ الحجازي ليس منعزلاً بل هو نتاج التقاء حضاري؛ فالكباب والبسطرمة تركيان، والفول المُدمَّس مصري، والمُجدَّرة سورية، والحلويات شامية، والأرز هندي، وهذا يثبت أنّ الحجاز كان بحكم موقعه وحركة الحج بوتقة طبخ كونية. ثالثاً، مركزية التمر التي يربطها بيركهارت بسنّة النبي،

[1]- مرجع نفسه، ص 35-36.

[2]- جون لويس بيركهارت، مرجع سابق، ص34-315.

فهو عنصر غذائي وديني معاً، وأنّ البدوي حين يسافر يحمل التمر والعدس والأرز والزبدة فقط، وهذه أربعة عناصر تكثّف فلسفة الطعام الكفاف في الصحراء.

3. العمران والخيام

أ- منازل جدة الحجرية: يصف بيركهارت جدة بأنها متقنة البناء تفوق أيّ مدينة تركية بحجمها، ومنازلها مبنية من الحجر المرجاني:

« والمنازل عالية وقد بُنيت بأكملها من الحجر الذي أحضر من شاطئ البحر، وهو من حجر المرجان والأحجار البحرية الأخرى، ولكل منزل تقريباً طابقان مع نوافذ صغيرة عديدة ومصاريع خشبية » .

ب- تقنية البناء بالألواح الخشبية: يلاحظ ابتكاراً معمارياً محلياً لتمتين الجدران:

« وأحياناً يكون في الحائط طبقة رقيقة من الألواح الخشبية الموضوعة على مسافة ثلاث أقدام بين الطبقة والأخرى، ويعتقد العرب أن هذه الألواح تزيد من قوة ومتانة الحائط » [1].

ج- أكواخ القصب على أطراف المدينة، مساكن الفقراء والبدو:

« تدخل ضواحي المدينة وهي لا تشمل سوى أكواخ مصنوعة من القصب والقش... ويسكن البدو غالباً في تلك الأكواخ أو الفلاحون الفقراء والعمال الذين يعيشون هنا على الطريقة البدوية » .

د- الأكواخ المخروطية في الجبال: يصف بيركهارت في طريقه إلى الطائف أكواخ القرى الجبلية:

« وهي مصنوعة من الأغصان المقطوعة ولها شكل مخروطي مسطح ولا يدخل إليها النور إلا من المدخل: هنا تعيش العائلة بأجمعها مجتمعة في غرفة واحدة ».

[1]- جون لويس بيركهارت، مرجع سابق، ص20-21-55.

هـ- الخيمة البدوية وأثاثها: يصف منازل قبيلة هذيل وأثاثها:

« وهي صغيرة من الحجر والطين لكنها مبنية بعناية وإتقان يفوق ما يمكن توقّعه... وتحتوي على أثاث بدوي وبعض السجاد الفاخر وأكياس صوفية وجلدية وبعض السلطانيات الخشبية وقُدور القهوة الفخارية »[1].

يكشف الوصف عن ثنائية معمارية واضحة في الحجاز: مركز المدينة من البناء الحجري الراقي ذي الطابقين والنوافذ المقوَّسة، وأطرافها من أكواخ القصب والقش حيث يسكن البدو والفقراء على الطريقة البدوية، وهي ظاهرة تتكرّر في كلّ مدينة بشبه الجزيرة العربية كما يقول بيركهارت.

ومن الذكاء المعماري الذي رصده بيركهارت استعمال المرجان البحري في البناء، وإدخال الألواح الخشبية بين طبقات الحجارة لتمتين الحائط، وهي تقنية محلية مبتكرة لمواجهة عدم تجانس الحجر، أمّا الخيمة البدوية والأكواخ المخروطية فتعكسان فلسفة الحياة البدوية في خفّة الترحال والاكتفاء بالحدّ الأدنى من الأثاث: سجادة وقُدور قهوة وحلّة طبخ واحدة.

4. التداوي بالأعشاب والأواني

أ- بائعو الأدوية والأعشاب من الهنود: يلاحظ بيركهارت أنّ تجارة العقاقير الطبية في الحجاز يحتكرها الهنود:

« هناك عشرون متجراً يديرها بائعو الأدوية وبائعو العطور والبهارات والصابون والشموع... وكلهم تقريباً هنود... وفي هذه المتاجر بالذات يجد المرء كل ما هو مطلوب من أدوية شعبية ومحلية » .

[1]- المصدر السابق ، ص62.

ب- ورد الطائف وبلسم مكة، منتجات طبية محلية: يذكر أنّ برعم الورد الآتي من حدائق الطائف مادة مهمة في تجارة الأدوية وله استعمالات طبية متعددة ، وأنّ الأطباء الحبش يقصدون جدة لشراء بلسم مكة .

ج- الزبدة دواءً ومستحضراً للبشرة:

« وتتّبع الطبقات الدنيا كذلك عادة فرك صدورهم وكتفيهم ويديهم ورجلَيهم بالزبدة لإنعاش البشرة[1] »

د- الأواني والخزف: يصف الأواني المستوردة والأطباق الكبيرة:

« ولقد رأيتُ في مكة كما في جدة، أطباقاً على الموائد قطر الواحد منها قدمان ونصف القدم على الأقل، يحملها شخصان وتحتوي على خروف مشوي كامل ».

ويذكر أنّ الخزف الصيني يلقى في الحجاز تقديراً عظيماً، وأنّ كلّ بدوي يملك على الأقل حلّة واحدة واسعة في كلّ خيمة [2].

يكشف وصف بيركهارت أنّ الطب الشعبي في الحجاز كان طبّاً مستورداً بأيدٍ هندية إلى حدّ كبير، فالعطّارون أو بائعو الأدوية غالباً هنود، لكنّ بلسم مكة وورد الطائف كانا منتجَين محلّيَين خالصَين يصدِّرهما الحجازيون، وهو ما يكشف عن تكامل بين المعرفة الوافدة عبر طرق الحج والمنتجات المحلية.

ولعلّ من أطرف الملاحظات أنّ العرب كانوا يستخدمون الزبدة دواءً ومستحضراً للبشرة معاً، في استخدام يدمج بين الغذاء والتجميل والعلاج.

[1]- جون لويس بيركهارت، مرجع سابق، ص32-44.

[2]- المصدر نفسه، ص40-42.

أمّا الأواني فترسم لوحة طريفة: خزف صيني على موائد مكة، وحلّة بدوية كبيرة في الخيمة، وأطباق هائلة قطرها قدمان ونصف يحملها رجلان وتحوي خروفاً كاملاً مشوياً، وهذا يعكس ثقافة الكرم والولائم العربية بصورة بصرية مدهشة.

ثانياً: الموروث الثقافي اللامادّي

يشمل الموروث اللامادّي العادات والتقاليد والمعتقدات والطقوس وأشكال الترفيه والذاكرة الجمعية، وقد رصد بيركهارت بعض هذه الجوانب بدقة، بينما أغفل جوانب أخرى لأسباب تتعلق بطبيعة شخصيته المتقمّصة للحاج المسلم، وفيما يلي عرض لما ورد في الكتاب من هذه العناصر.

1- الرقص والغناء

بيركهارت بحكم تقمّصه شخصية الحاج المسلم الورع ركّز على وصف الشعائر الدينية والمعاملات التجارية والعمران، ولم يتعرّض لمشاهد الطرب، وقد أشار في الكتاب إلى أنّ اللعبة الأكثر استعمالاً في المقاهي هي المنقَلة ولعبة الداما والشطرنج بدلاً من الرقص والغناء[1].

إنّ غياب وصف الرقص والغناء في هذا الكتاب بالذات هو شاهد ثقافي بحدّ ذاته؛ فبيركهارت زار الحجاز عام 1814م، وهي حقبة تركت فيها الدولة السعودية الأولى أثرها العميق في الحجاز قبل أن تطردها قوات إبراهيم باشا، ومن المعلوم أنّ الحركة الإصلاحية يومئذ ضيّقت بشدّة على مظاهر اللهو.

كما أنّ بيركهارت كان يحرص على إظهار التديّن لئلا ينكشف أمره، فلم يكن من مصلحته أن يحضر مجالس طرب، وغياب هذه المادة لا ينفي وجودها، بل يعكس خصوصية اللحظة التاريخية وانتقائية الرحّالة بحسب الشخصية التي يتقمّصها.

[1]- مرجع سابق، ص33.

2. الأمثال

أشار بيركهارت إلى وجود تعابير اصطلاحية ساخرة يتداولها الناس في معاملاتهم، كما في وصفه لطريقة تعبير الواهبين عن مشاعرهم عند تقديم الهدايا المتواضعة[1].

كان تركيز بيركهارت أنثروبولوجياً مادياً لا فلكلورياً لغوياً؛ ولذلك لا نجد في الكتاب مجموعات منظَّمة من الأمثال كما عند الرحّالة الذين أتوا بعده مثل داوتي أو فيلبي، لكنّ الكتاب يومئ إلى وجود ثقافة قول شفهية ساخرة تظهر في معاملات السوق وطقوس إهداء الهدايا، وهو ما يستحق التنويه رغم عدم تصريح المؤلف به.

3. الألغاز

لم يتطرّق بيركهارت في هذا الكتاب إلى الألغاز الشعبية إطلاقاً، وهذا فراغ معرفي ينبغي الإشارة إليه أكاديمياً لا تجاوزه، ولعلّ سببه انشغاله بالمسائل الجغرافية والدينية والسياسية والاقتصادية أكثر من الجانب الفلكلوري الترفيهي الذي يحتاج إلى مخالطة طويلة ومعرفة عميقة باللهجة المحلية.

4. الاعتقادات والعادات والتقاليد

أ- اعتقاد البدو في خطر الإحصاء والعدّ: يرصد بيركهارت معتقداً راسخاً مرتبطاً بخشية الحسد:

« للأسباب نفسها التي لا تدفع البدوي إلى إحصاء أبنائه في قبيلته أو العدد الدقيق لقطيعه... فإن التاجر لا يحاول أبداً أن يتأكد من القدر الدقيق لأملاكه... ينبع هذا من الاعتقاد بأن العدّ هو عرض متباهٍ للثروة تُعاقَب عليه السماء بتخفيضها بسرعة »[2].

ب- آداب الشراب (عدم شرب الماء بعد القهوة): يذكر بيركهارت طرفة شخصية كشفت أنه غريب:

[1]- مرجع سابق، ص16.

[2]- المصدر السابق ، ص42.

« لقد عُرفتُ مرة في سوريا بأني أجنبي أو أوروبي لأني طلبتُ الماء مباشرة بعد شرب القهوة، إذ قال النادل: لو أنك كنت من هذه البلاد لما أزلتَ طعم القهوة من فمك بغسله بالماء »[1] .

ج- قدسية الكرم وعدم بيع الحليب: يلاحظ تقليداً بدوياً صارماً:

« بيع الحليب يُعتبر فضيحة بين هؤلاء البدو على الرغم من أنهم يستطيعون جني الأرباح الكبيرة منه » [2].

د- تخليد ذكرى الكريم: يصف قبراً تحوّل إلى رمز للكرم البدوي:

« وقد أصبح قبره نُصباً تذكارياً للسخاء والكرم البدوي ويطبع في الذهن النزعة إلى عمل الخير نحو رفاق السفر » [3] .

هـ- الترفيه في المقاهي (المنقَلة والداما والشطرنج):

« المنقَلة هي اللعبة الأكثر استعمالاً في المقاهي كلها عامة، وكذلك لعبة الداما... إلا أنه لم يصادف أبداً أن رأيت لعبة الشطرنج تستعمل في الحجاز رغم أني سمعتُ عن شيوعها خاصة بين الأشراف » [4].

و- طقوس التلبية والإحرام: يصف بيركهارت لحظة إحرام رفاقه في طريقهم إلى مكة:

« جهراً بالنية وصلاة من ركعتين وترديد الهتافات الدينية وتُدعى التلبية » [5].

---

[1]- المصدر السابق، ص33.

[2]-المصدر السابق، ص110.

[3]- المصدر السابق، ص59.

[4]- المصدر السابق، ص33

[5]- المصدر السابق، ص54.

ز – طقوس زيارة الروضة في المدينة المنورة: يصف بدقة شعائر زيارة المسجد النبوي:

« في البدء، على الحاج تطهير نفسه بالوضوء الكامل أو الغسل، قبل الدخول إلى المدينة، وإذا كان باستطاعته فله أن يُعطّر جسده بروائح طيبة، وحين تظهر القبة أمام عينيه، عليه أن يُردّد بصوت عالٍ بعض الأدعية الدينية » [1].

تكشف هذه المعتقدات والعادات عن منظومة قيمية مركَّبة عند أهل الحجاز، فاعتقاد العين والحسد يظهر في رفض البدوي إحصاء قطيعه أو أبنائه أو ماله خشية أن تعاقب السماء بتخفيض الثروة، وهي إحدى أعرق الاعتقادات الشعبية في الجزيرة العربية الممتدة حتى يومنا، وقدسية الضيافة تظهر في اعتبار بيع الحليب فضيحة، فالحليب يُقدَّم للضيف وتحويله إلى سلعة يخدش الكرم، كما أنّ قبر الكريم يصبح نصباً تذكارياً يُلهم الكرم، وهو توثيق نادر لذاكرة الكرم الجماعية.

أمّا آداب الطعام والشراب فدقيقة: عدم شرب الماء بعد القهوة لئلا يُمحى طعمها، وشرب الزبدة صباحاً منشِّطاً، وهي آداب يحفظها العامة وتميّز ابن البلد عن الغريب الذي يكشفه النادل من حركاته.

واللعب والترفيه مصنَّف اجتماعياً: الداما والمنقَلة للعامة، والشطرنج حكر على الأشراف، وأخيراً، تكشف طقوس التلبية وزيارة الروضة عن دقة بيركهارت في رصد الشعائر الدينية بوصفه مشاركاً فيها لا مجرد مراقب خارجي.

5. الشعر

لم يورد بيركهارت في الكتاب قصائد أو أبياتاً شعرية لأهل الحجاز بشكل مباشر، غير أنّه أشار إلى معرفته بوجود تراث شعري عربي حين ذكر أنّ جبل لعلع قرب مكة ممّا يذكره الشعراء العرب أحياناً في أشعارهم، وهي إشارة تدلّ على وعيه بالموروث الشعري وإن لم يستشهد بنصوصه[1].

[1] – المصدر السابق، ص282.

هذا الغياب ملفت، خصوصاً أنّ العصر كان عصر ازدهار الشعر النبطي في الجزيرة العربية. ويُحتمل أنّ بيركهارت باعتباره أجنبياً يحاول التخفّي لم تسنح له فرصة حضور مجالس الشعراء والرواة في المضايف والمجالس الخاصة، كما أنّ اللغة الشعرية البدوية اللهجية كانت ربما عصيّة على إتقانه للعربية الفصحى، فآثر إغفالها على إيرادها مشوّهة. وفي كلتا الحالتين، يبقى الفراغ الشعري في رحلة بيركهارت دلالة على حدود معرفته بالموروث الشفهي العربي، مقارنةً بدقة وصفه للموروث المادّي الذي شاهده بعينَيه.

[1]– المصدر السابق، ص106.

خلاصة

من خلال هذه الجولة في رحلة بيركهارت، يتّضح أنّ الكتاب يُعدّ سجلاً أنثروبولوجياً مادياً من الطراز الأول؛ فقد رصد المؤلف اللباس والطعام والعمران والأواني والتداوي بدقّة الباحث الميداني، وأحاط ببعض العادات والاعتقادات والطقوس الدينية إحاطة جيدة، غير أنّ الكتاب يقصر عن إيفاء الموروث الشفهي حقّه: فلا يكاد يذكر رقصاً ولا غناءً ولا أمثالاً ولا ألغازاً ولا شعراً.

وهذه الفجوة بحدّ ذاتها تكشف عن طبيعة عين الرحّالة الغربي: عينٌ تُجيد توثيق ما يُرى ويُلمس، لكنها تخفق جزئياً في الإمساك بالموروث الشفهي الذي يحتاج إلى عمق لغوي وإقامة طويلة بين الناس بصفة المنتمي لا المتقمّص، ومع ذلك، يظلّ ما رصده بيركهارت من تجلّيات الموروث الثقافي المادّي شهادة بصرية ثمينة على الحجاز في مرحلة انتقالية فاصلة من تاريخه، بين أفول الدولة السعودية الأولى وعودة الحكم العثماني المصري.

خاتمة

خاتمة:

في ختام هذه المذكرة التي سعينا من خلالها إلى تتبع تجليات الموروث الثقافي بشقيه المادي واللامادي في كتاب "رحلات إلى شبه الجزيرة العربية" للمستشرق السويسري جون لويس بيركهارت، نخلص إلى جملة من النتائج أهمها:

ـ أن بيركهارت لم يكن مجرد عابر سبيل أو رحالة يكتفي بالرصد السطحي ، بل كان باحثا متعمقا استطاع بفضل تماهيه مع ثقافة الحجاز وتقمصه لشخصية "الشيخ إبراهيم" أن يغوص في أعماق البنية الاجتماعية والثقافية للمجتمع العربي.

ـ سجل الرحالة تفاصيل دقيقة تعكس النبض الحقيقي للحياة اليومية في مطلع القرن التاسع عشر، وهو ما مكنه من تقديم قراءة موضوعية تقترب من النسبية الثقافية وتتجاوز النظرة الاستعلائية التي طبعت الكثير من المدونات الاستشراقية في عصره.

ـ من خلال المقاربة الوصفية والتحليلية لنص الرحلة، تبين لنا بوضوح تفوق الرحالة في توثيق الموروث المادي ببراعة فائقة، حيث حول مذكراته إلى ما يشبه المتحف الورقي الذي يحفظ الطراز المعماري، وتفاصيل الأزياء، والأدوات الحرفية، والأنماط الغذائية، وتقنيات البناء والتداوي بالأعشاب.

ـ رغم نجاح الرحالة في رصد الكثير من العادات والتقاليد والطقوس الدينية بدقة المراقب المشارك، فقد تجلت لنا بعض الفجوات في إحاطته بالموروث اللامادي الشفهي كالشعر، والأمثال، والألغاز، والأهازيج، وهو أمر يعزى بالأساس إلى طبيعة الغطاء الذي اتخذه كحاج ورع يبتعد عن مجالس اللهو، بالإضافة إلى صعوبة الإحاطة الكاملة بالشيفرات اللغوية العميقة للثقافة الشفهية من قبل باحث أجنبي مهما بلغت درجة إتقانه للغة العربية.

ـ إن كتاب بيركهارت يظل وثيقة مرجعية لا غنى عنها لكل باحث في الدراسات الثقافية، فهو يقدم لنا فرصة نادرة لرؤية ذاتنا الثقافية العربية في لحظة تاريخية فارقة عبر عيون الآخر.

ـ استطاع الرحالة أن يتجرد إلى حد بعيد من المركزية الغربية، لتبقى دراسة مثل هذه المدونات الميدانية ضرورة ملحة لاستنطاق التاريخ اليومي والمهمش، وإعادة قراءة موروثنا الثقافي قراءة نقدية واعية تسهم في تعزيز ارتباطنا بهويتنا الأصيلة، وفهم آليات صمود ثوابتنا الحضارية أمام المتغيرات الكبرى.

الملخص

الملخص

الملخص باللغة العربية

تتناول هذه المذكرة بالدراسة والتحليل تجليات الموروث الثقافي بشقيه المادي واللامادي في كتاب "رحلات إلى شبه الجزيرة العربية" للرحالة السويسري جون لويس بيركهارت، حيث تسعى الدراسة إلى إبراز كيف تمكن هذا المستشرق من رصد تفاصيل الحياة الاجتماعية والثقافية في الحجاز خلال القرن التاسع عشر، وقد اعتمدت الدراسة على المنهج الوصفي التحليلي ، وخلصت المذكرة إلى أن بيركهارت قدم وثيقة إثنوغرافية دقيقة وموضوعية للموروث المادي كالعمران والأزياء والأطعمة، غير أنه أظهر نقصا في توثيق بعض جوانب الموروث اللامادي الشفهي كالشعر والألغاز نظرا لطبيعة شخصيته المتقمصة، مما يؤكد أهمية الكتاب كمرجع تاريخي وأنثروبولوجي مع إدراك حدود الرؤية الاستشراقية الميدانية.

Abstract

This thesis examines and analyzes the manifestations of cultural heritage, both material and immaterial, in the book "Travels in Arabia" by the Swiss explorer John Lewis Burckhardt, it aims to highlight how this orientalist was able to observe the details of social and cultural life in the Hijaz during the nineteenth century, the study relies on a descriptive-analytical approach supported by cultural criticism and anthropology to deconstruct the narrative structure of the journey, the thesis concludes that Burckhardt provided an accurate and objective ethnographic document of material heritage such as architecture, clothing, and food, however, he showed limitations in documenting some aspects of oral immaterial heritage, such as poetry and riddles, due to the nature of his disguised identity, which confirms the importance of the book as a historical and anthropological reference while recognizing the limits of the field orientalist vision.

قائمة المصادر

والمراجع

قائمة المصادر و المراجع

أولا: المصادر

جون لويس بيركهارت، رحلات إلى شبه الجزيرة العربية، ترجمة صبري محمد حسن، المركز القومي للترجمة ، مصر، القاهرة، ط1 ،2007.

ثانيا: المراجع

1: الكتب

- أبو بكر أحمد باقادر، الأنثروبولوجيا في الوطن العربي، دار النشر للمراكز العلمية، ط1، مصر (القاهرة)، 1997.
- أحمد إيبش، مكة المكرمة والمدينة المنورة في كتابات الرحالة الغربيين، هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، ط1، الإمارات (أبوظبي)، 2006.
- أحمد علي مرسي، الهوية والمأثور الشعبي في العالم العربي، المنظمة الدولية للفن الشعبي، ط1، البحرين (المنامة)، 2015.
- أحمد مرسي، الأدب الشعبي وفنونه، دار المعارف، ط1، مصر (القاهرة)، 2001.
- إدوارد تايلور، الثقافة البدائية، دار النهضة العربية، ط1، مصر (القاهرة)، 2007.
- إسماعيل فهد إسماعيل، المكان في السرديات العربية، دار الفارس، (د.ط)، الأردن (عمّان)، 1996.
- حسن حنفي، التراث والتجديد: موقفنا من التراث القديم، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ط1، لبنان (بيروت)، 1980.
- حصة بنت جمعان الزهراني، الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الحجاز من خلال كتابات الرحالة، مكتبة الملك فهد الوطنية، ط1، السعودية (الرياض)، 2012.

- عبد الإله بلقزيز، العولمة والممانعة: دراسات في المسألة الثقافية، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، لبنان (بيروت).
- عبد الرحمن الشيخ، قراءة في أدب الرحلات الاستشراقية، دار المعارف، (د.ط)، مصر (القاهرة)، 1993.
- عبد الغني عماد، سوسيولوجيا الثقافة: المفاهيم والإشكاليات من الحداثة إلى العولمة، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، لبنان (بيروت)، 2004.
- عبد الله إبراهيم، السردية العربية الحديثة، المركز الثقافي العربي، (د.ط)، المغرب (الدار البيضاء)، 2007.
- عبد الله إبراهيم، المكون المادي في التراث العربي (أعمال ملتقى التراث والهوية)، منشورات جامعة دمشق، ط1، سوريا (دمشق)، 2012.
- عبد الله إبراهيم، الهوية والديناميات الثقافية في المجتمعات العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، لبنان (بيروت)، 2010.
- عبد الله صالح العثيمين، تاريخ المملكة العربية السعودية، مكتبة العبيكان، ط10، السعودية (الرياض)، 1999.
- علي عرسان، التراث والهوية في الثقافة العربية، اتحاد الكتاب العرب، (د.ط)، سوريا (دمشق)، 1999.
- عوض البادي، الرحالة الأوربيون في الجزيرة العربية: دراسة تاريخية تحليلية، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ط1، السعودية (الرياض)، 2005.
- فاروق خورشيد، المأثورات الشعبية، دار الشروق، ط1، مصر (القاهرة)، 2002.
- فاطمة الزهراء محمود، الاستشراق السويسري وتوثيق التراث الحجازي (أعمال مؤتمر الاستشراق)، مجلس النشر العلمي بجامعة الكويت، ط1، الكويت، 2019.
- كليفورد غيرتز، تأويل الثقافات، المنظمة العربية للترجمة، ط1، لبنان (بيروت)، 1993.

- مالك بن نبي، شروط النهضة، دار الفكر، ط4، سوريا (دمشق)، 1986.
- محمد الجوهري، الأنثروبولوجيا الثقافية: دراسة في الثقافة الإنسانية، دار المعرفة الجامعية، ط3، مصر (الإسكندرية)، 2007.
- محمد آل زلفة، الرحالة الأوروبيون وشبه الجزيرة العربية، دار طويق للنشر والتوزيع، ط1، السعودية (الرياض)، 1996.
- محمد بن مكرم بن منظور، لسان العرب، دار صادر، ط3، لبنان (بيروت)، 1994.
- محمد عبد الغني، الاستشراق والأنثروبولوجيا: قراءة في أدب الرحلة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (د.ط)، مصر (القاهرة)، 2010.
- محمد عبد الله آل زلفة، مكة والمدينة في عيون الرحالة، دارة الملك عبد العزيز، ط2، السعودية (الرياض)، 2008.
- محمد عابد الجابري، التراث والحداثة: دراسات ومناقشات، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، لبنان (بيروت)، 1991.
- محمد فتحي عبد الهادي، التوثيق والمعلومات: أسس علمية وتطبيقات، الدار المصرية اللبنانية، ط1، مصر (القاهرة)، 2012.
- يحيى محمود بن جنيد، المستشرقون والتراث العربي، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ط2، السعودية (الرياض)، 1993.

2ً: الرسائل الجامعية

- أحمد سعيد العبيدي، الأنساق الثقافية وتأثيرها على البناء الاجتماعي (أطروحة دكتوراه)، جامعة القاهرة، (د.ط)، مصر (القاهرة)، 2018.
- سعاد بنت عبد الله، العادات والتقاليد في شبه الجزيرة العربية قبل اكتشاف النفط (مذكرة ماستر)، جامعة الملك سعود، ط1، السعودية (الرياض)، 2018.

- علي بن صالح العبيدي، البنية الثقافية في المجتمع البدوي العربي: دراسة أنثروبولوجية (أطروحة دكتوراه)، عمادة البحث العلمي بجامعة الملك سعود، (د.ط)، السعودية (الرياض)، 2015.
- محمد سعيد الزهراني، البناء القبلي والأعراف الاجتماعية في نجد والحجاز (أطروحة دكتوراه)، عمادة البحث العلمي بجامعة الإمام محمد بن سعود، ط1، السعودية (الرياض)، 2012.

الفهرس

الفهرس

شكر وعرفان

الإهداء

مقدمة

الفصل الأول:مدخل مفاهيمي للموروث الثقافي الشعب 4

2- مكونات الثقافة 3

3- مفهوم الموروث الثقافي 6

4- الموروث الثقافي الشعبي 7

5- لمحة عن الكتاب 9

الفصل الثاني:تجلّيات الموروث الثقافي 14

في كتاب «رحلات إلى شبه الجزيرة العربية» 14

لجون لويس بيركهارت 14

أولاً: الموروث الثقافي المادّي 16

1. اللباس 16

2- الأكل والطعام 21

3. العمران والخيام 24

4. التداوي بالأعشاب والأواني 25

1- الرقص والغناء 27

2. الأمثال 28

3. الألغاز 28

4. الاعتقادات والعادات والتقاليد 28

5. الشعر 30

خاتمة 33

الملخص 35

قائمة المصادر والمراجع 37

الفهرس 42

الملاحق

ملحق المذكرة: البطاقة التعريفية بالرحالة والكتاب

أولاً: التعريف بالرحالة (جون لويس بيركهارت)

- **الاسم والنشأة:** يوهان لودفيغ بوركهارت(Johann Ludwig Burckhardt) ، المعروف في العالم العربي والإسلامي باسم "**الشيخ إبراهيم بن عبد الله**"، وفي الأدبيات الإنجليزية باسم "**جون لويس بيركهارت**"، ولد في مدينة لوزان بسويسرا في 24 تشرين الأول (أكتوبر) 1784م لعائلة سويسرية عريقة.

- **التكوين العلمي:** تلقى تعليمه العالي في جامعتي لايبزيغ وغوتينغن بألمانيا، حيث درس القوانين والفلسفة والتاريخ، انتقل إلى لندن عام 1806م، وهناك تعاقد مع "الرابطة الإفريقية" البريطانية (African Association)للقيام برحلة استكشافية كبرى للبحث عن منابع نهر النيجر في إفريقيا، ومن أجل التجهيز لهذه الرحلة، درس اللغة العربية، والعلوم الطبية، والفلكية في جامعة كامبريدج، وعمل على تعويد جسده على المشاق وقسوة المناخ.

- **الاندماج والانصهار الثقافي:** أدرك بيركهارت أن الطريقة الوحيدة للوصول إلى عمق المجتمعات الشرقية دون إثارة الريبة هي الاندماج الكامل فيها. لذا، سافر إلى الشام عام 1809م، واستقر في حلب ليعمق إتقانه للعربية ويدرس الفقه الإسلامي والشريعة، متبنياً شخصية تاجر مسلم ألباني يُدعى "الشيخ إبراهيم."

- **أبرز إنجازاته الاستكشافية:**

1- إعادة اكتشاف مدينة **البتراء** الأثرية في الأردن عام 1812م بعد قرون من النسيان .

2- إعادة اكتشاف معبد **أبو سمبل** في صعيد مصر عام 1813م.

3- رحلته الشهيرة إلى **بلاد الحجاز** 1815–1814)م) والتي تعد أدق رحلة استشراقية رصدت مكة والمدينة من الداخل في تلك الحقبة.

- **الوفاة:** أصيب بمرض الدوسنتاريا (الزحار) أثناء إقامته في مصر وهو يستعد لرحلته الإفريقية المؤجلة، وتوفي في القاهرة في 15 تشرين الأول (أكتوبر) 1817م عن عمر ناهز 32 عاماً، ودُفن في مقابر باب النصر بالقاهرة بناءً على وصيته باعتباره مسلماً.

ثانياً: التعريف بالكتاب (رحلات إلى شبه الجزيرة العربية)

- **عنوان الكتاب الأصلي**

- **تاريخ النشر وجهته:** نُشر الكتاب لأول مرة في لندن عام **1829م**)أي بعد وفاة المؤلف باثني عشر عاماً)، حيث تولت "الرابطة الإفريقية" جمع وتدقيق مذكراته ورسائله الميدانية ونشرها في مجلدين.

- **النطاق الجغرافي والزمني للرحلة:** يغطي الكتاب فترة إقامة بيركهارت في الحجاز بين عامي **1814م و1815م**، وتشمل مساراته مدن: جدة، الطائف، مكة المكرمة، والمدينة المنورة، بالإضافة إلى تنقلاته بين القرى والقبائل البدوية المحيطة بها (مثل قبائل هذيل وجهينة وحرب).

- **الأهمية التاريخية والسياسية:** تكمن قيمة الكتاب في تزامنه مع فترة مفصلية من تاريخ شبه الجزيرة العربية؛ وهي فترة الصراع العسكري بين قوات محمد علي باشا (نيابة عن الدولة العثمانية) والدولة السعودية الأولى، وقد التقى بيركهارت بمحمد علي باشا شخصياً في الطائف، ورصد بدقة موازين القوى وحالة الاضطراب السياسي والاجتماعي التي عاشتها المنطقة.

- **القيمة الأنثروبولوجية والعلمية:** يُصنف الكتاب كأحد المراجع الكلاسيكية الكبرى في الإثنوغرافيا والأنثروبولوجيا الثقافية، فقد تميز بيركهارت عن بقية الرحالة بـ "الملاحظة بالمشاركة"؛ حيث أدى مناسك الحج كاملة، وعاش في مكة والمدينة كفرد من المجتمع، مما أتاح له توثيق:
    - الطبوغرافيا الدقيقة للمشاعر المقدسة والمسجد الحرام والمسجد النبوي.
    - التركيبة الديموغرافية والسكانية المعقدة لمدن الحجاز وأصولهم.
    - الموروث الثقافي المادي (تفاصيل الأزياء، الأطعمة، الأواني، العمارة الحجرية والطينية، وتقنيات التداوي).

- الموروث الثقافي اللامادي (الأعراف القبلية، المعتقدات الشعبية، والتباينات اللغوية واللهجية).

- **المنهج والموضوعية:** اتسم نص بيركهارت بالابتعاد الشديد عن النزعة العجائبية أو الاستعلائية الأوروبية النمطية، حيث قارب المجتمع الحجازي والبدوي برؤية نقدية محايدة وصفت بدقة مظاهر الحياة بركائزها الاقتصادية والاجتماعية والدينية.

ثالثاً: صورة غلاف الكتاب